

محمد بن راشد يودع الشيخ حمدان بقوافي القلب



دبي: «الخليج»

يصعب الكلام عند الفقد، فتصبح الحروف عصية، خاصة عندما يكون الفقيد من أقرب الأقربين، لكن صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، رعاه الله، يطوع خيول القصيدة العنيدة، ويتخير من الكلمات ما يليق بجلال الحدث، ليستودع حزنه ووجعه في فقيدته وفقيد الوطن أخيه المغفور له بإذن الله، الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم، في قصيدة تدمي القلوب، فقد جاءت متدفقة كشلال من المشاعر الإنسانية النبيلة، وسيل من الأحزان، بحس شعري نابع من القلب يصور صدمة الفراق، فهي قصيدة تحمل معاني الوفاء والنبيل، ويتجول الحزن بين متونها وحواشيتها، وفي ذات الوقت تتجمل بالمدح وقوة الوصف في إظهار شمائل الراحل الكبير. يقول صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم:

العضيد اللي إلى العليا إرتحل

أشهد أنه كان لي نعم العضيد

عنه أدري ما يحصل لي بدل

صاحبُ الراي المنقَى والسِّدِّيدُ

في تدابيره ماتلقى له خَلَلُ

حسن تدبيره إذا تَشَكَّلَ أكيدُ

مستهل بديع، يصف فيه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، أخيه بكلمة اجتمعت فيها الكثير من المعاني، وهي «العضيد»، والتي تعني في اللغة الصديق الوفي أو الخليل، وهي من عضد، والعضد المنطقة ما بين المرفق والكتف وتتصف بالقوة، بالتالي فإن الكلمة تحيلنا إلى قوة العلاقة والصداقة والأخوة بين سموه وأخيه الراحل، فقد كان مكن سر ومحل ثقة لا تحدها حدود، ثم يكرر سموه الكلمة مرة أخرى في عجز البيت، دلالة على تأكيد ما كان بينهما، إضافة إلى أن التكرار يخلق حالة جمالية، فالراحل له مكانته الخاصة التي لا يحل فيها غيره، فقد كان صاحب رأي ومنطق قوي، يحسن التدبير في المواقف دون خلل أو نذل، وذلك يدل على مكانة سامية للراحل في قلب صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، فلم يكن مجرد أخ؛ بل رفيق درب وصاحب وفي وخليل يستأنس برأيه ورجاحة عقله.

دفق شعوري

ينتقل صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم بعد ذلك، ليصف وقع خبر وفاة أخيه عليه، وعلى الوطن، والعرب جميعاً، فقد اهتزت من هوله كواكب السماء، وكادت الأرض أن تميد برحيله، ثم يتساءل سموه في دفق شعوري عاطفي يلامس شغاف القلوب عن الرحيل الباكر، مشبهاً أخيه بالنجم الذي غاب، وما أعجل الدنيا، وما أسرع المنية وساعة الرحيل، ولكأن سموه في هذا البيت، يتلفت بقلبه، ويستدعي ذاكرة حملت الكثير من التفاصيل بين أخوين تربيا وترعرا معاً، وجمعتهما أوصر المحبة، ولا شك أنها لحظة صعبة على النفس، ثم إن سموه ليصف أخيه بأجمل الصفات عندما ناداه بالقرم، وهو لقب يطلق على الرجل الشجاع طيب الأفعال والأقوال، وهو ما يؤكد سموه في البيت الذي يليه، عندما يعدد أفعاله الحسنة التي تشهد له، وأقواله الطيبة، وغيرها من الصفات الجميلة التي يشهد بها الجميع، فقد أدى دوره في الوطن وقام به خير قيام، فكان من الوطنيين الأخيار، الذي قدموا لبلادهم وبذلوا كل ما يملكون، فصارت أعماله بصمة لا تمحى؛ بل تخلد عبر الأزمان، يتناقلها جيل بعد جيل، تحكي عنه وعن بطولاته وعزمه وقوته ومنعته، فبمثله تنهض الدول وتزدهر وتتقدم الصفوف.

الخَيْرُ هَزَّ الثَّرِيًّا مَنْ نَزَلَ

وكادت الأرض بأهلها له تميدُ

كيفَ عنَّا تسيَّرُ يانجمٍ إفلُ

ما شبعنا منك يا القرمُ الرِّشيدُ

عشتُ يا حمدانُ منك ما حصلُ

غيرَ فعلِ الخيرِ والرَّأيِ السِّدِّيدِ

تشهدُ الدُّولُ بأنْ دوركُ كَمَلُ

بصمتك ما تنمحي وفعلكُ جَميدُ

بكُ وبأمثالكُ ترى تقومُ الدُّولُ

بالرِّجالِ اللَّيِّ إرادتهمُ حديدُ.

شمائل فريدة

وتطرق صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، إلى خصوصية علاقة الأخوة، فأجمل وأنبل العلاقات الإنسانية تلك التي تكون بين المرء وأخيه، فقد كان الراحل الفقيد نعم الأخ؛ بل ومضرباً للمثل بشمائله الفريدة وحسن أخلاقه الرفيعة، وتلك الشمائل والأعمال هي خير زاد يحمله وهو يحل ضيفاً على رب غفور رحيم، ليكون - بإذن الله - في منزلة الشهداء والصديقين، ثم يعود سموه ليعدد تلك الصفات العظيمة للراحل، فقد اتسم بالصدق وعلو النفس في الأقوال

والأفعال، ووضوح الرأي والتمسك بكلمة واحدة، وتلك صفة تشير إلى قوة الشخصية والحكمة في ذات الوقت، فقد كان الراحل من الذين يثبتون أقوالهم بالفعل، وسار في طريق الحق فلم يحد عنه ولم يتوان عن خدمة أهله ووطنه، فهو قد اكتسب المعالي والصفات النبيلة منذ الصغر توارثها من خير أهل، كان بهم باراً، وكان بمثابة الأمل لهم ولوطنه الكبير. ويفيض صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، في الوصف وبيدع، فيذكر كيف أن أخيه كان محباً للخيل، وذلك أمر يشتركان فيه، فحب الخيل هي من صفات الفرسان والأبطال والشجعان، والراحل الكبير إلى جانب البطولة والشجاعة شهيم وكريم، وذلك مما تفاخر به العرب، فقد جمع من الصفات الحسنة ما جعله سابق لعصره، وهو فوق ذلك صاحب ماضٍ مجيد وعظيم، فهو من قوم ورثوا النبل والإقدام والكرم كابر عن كابر، ورضعوا من ثدي العروبة كل الصفات العظيمة والنبيلة، يقول سموه:

إِنْتَ أَخُوهِ وَكُنْتَ بِكَ أَضْرَبُ مِثْلُ
وَكَنْتَ بِكَ مَحْظُوظٌ فِي الدِّينِ سَعِيدٌ
فِي ضِيافَةِ رَبِّ غَفْرَانِهِ شَمَلٌ
الْعِبَادُ اللَّيِّ لَهُمْ أَجْرُ الشَّهِيدِ
كَنْتُ صَادِقٌ فِي كَلَامِكَ وَالْفِعْلُ
كَنْتُ وَاضِحٌ لَا تَعِيدُ وَلَا تَزِيدُ
كَلِمَتِكَ وَحَدِيثُكَ وَتَثْبِتُ بِالْعَمَلِ
فِي طَرِيقِ الْحَقِّ سَائِرٌ مَا تَحِيدُ
كَانَ فِيكَ لِدَارِكَ وَأَهْلِكَ أَمَلٌ
لِلْمَعَالِي مَنْ صَغُرَ سِتِّكَ تَشِيدُ
يَا مَحِبُّ الْخَيْلِ يَا شَهِيمٌ بَطَلٌ
سَابِقٌ عَصْرَهُ وَلَهُ مَاضِيٌ مَجِيدٌ.

مرآة الروح

ومثلما كان مستهل القصيدة بديعاً، ختمها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، ببيت قمة الروعة والجمال، فما بعد الموت إلا الذكرى الحسنة، والأفعال التي تخلد صاحبها إلى يوم القيامة، يوم لا تنفع فيه إلا الأعمال الصالحة التي يتركها الراحلون في الدنيا لتشهد لهم في دار البقاء والخلود.

ذكرك الباقي بذكرك نحتفل

وإسمك مخلد إلى يوم الوعيد

لا شك أن الشعر هو مرآة الروح الصافية، وفي القصيدة يسكب صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، مشاعره قطرة فقطرة، لتأتي صادقة معبرة، وفيها يتسامى سموه فوق الأحزان والألم، من أجل أن يواسي غيره من الأهل وأبناء الوطن في الفقيد الكبير

الصورة

